

الإبداع بين الدين والسلطة

حسان الجيلاني (*)

لا نستطيع أن نتحدث عن الإبداع دون أن نمرّ على الظروف الموضوعية التي تسهم بدرجات متفاوتة في تنميته وبلورته، أو تعمل على ركوده، وجموده. فالإبداع شأنه شأن جميع الظواهر الاجتماعية الأخرى لا بدّ أن يرتبط بظروف، وأن يُخصَّب في بيئة، ويعيش في جوّ اجتماعي معيّن، ولهذا الجو الدور الحاسم في بلورته وتنميته.

والمبدعون ثروة الأمة التي لا يمكن الاستغناء عنها وهم بمثابة معالم مميزة على طرقاتها. فهم الذين يكتشفون الخفايا التي تمتنع عن الإنسان العادي ولا تكشف نفسها له.

والعملية الإبداعية ليست فردية أو تعيش في فراغ مرتبطة بشخص المبدع وموهبته، وسماته وقدراته الشخصية بل هي مرتبطة بالمجتمع، وأنظمتها المختلفة. فهو الذي يساعد على بلورتها، وترقيتها بما يوفره من شروط موضوعية ومناخ ملائم، وتقف حواجز كثيرة دون ذلك، وسوف يكون تركيزنا في هذا الموضوع منصباً، ليس على الحواجز النفسية والاجتماعية والتربوية للعملية الإبداعية، والتي تناولناها بالتفصيل في موضوع مستقل، ولكن سنركّز هنا على عنصرين أساسيين يلعبان دوراً حاسماً في العملية الإبداعية، وهما العامل الديني المتمثل بالشرائع والقيم والقواعد للمعاملة من جهة، والعامل السياسي وأنظمة الحكم التي قد تعرقل جهود المبدعين وتقف حاجزاً دون نموهم وتطورهم من جهة ثانية.

أولاً: أثر الدين في الإبداع

في الفكر الديني الكلاسيكي ارتبط الإبداع «بالبدعة»، وكما هو معلوم فقد حارب

(*) كلية التربية / قسم علم الاجتماع، جامعة عنابة - الجزائر.

الإسلام البدعة، واعتبرها ضلالة وكل ضلالة في النار، لهذا ذهب بعض الإسلاميين التقليديين إلى أن مصطلح «الإبداع» لم يرد في الفكر الإسلامي الكلاسيكي فهو نتاج الحياة المعاصرة، وبالتالي فهو مستورد من الغرب، وحسب فكرهم فإن كلمة «إبداع» وكلمة «خلق» ليستا من صفات الإنسان، بل من صفات الله وهو وحده الخالق والمبدع، وليس بإمكان الإنسان أن يبدع شيئاً من لا شيء.

وإذا كنّا نلتقي مع هذا الرأي من أن المخلوق لا يستطيع أن يخلق شيئاً من العدم، إلا أن المقصود بالخلق والإبداع في الفن خاصة ليس هو أن تطرق موضوعاً لم يسبقك إليه سابق ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك، إنما الابتكار الأدبي والفني، هو أن تتناول الفكرة التي قد تكون مألوفة للناس فتسكب فيها من أدبك وفنك ما يجعلها تنقلب خلقاً جديداً يبهّر العين ويدهش العقل، أو أن تعالج الموضوع الذي كاد يبلى بين أصابع السابقين، فإذا هو يضيء بين يديك بروح من عندك⁽¹⁾.

هذا هو الابتكار الحقيقي الذي نقصده في هذا البحث، فليس بالمعنى الخلق من العدم بل بمعنى الإضافة المبدعة التي لا تكون صورة من الماضي، بل صورة جديدة تختلف عما عرف من صور ماضية، وبالتالي فإن الإبداعية تنكّىء على الرصيد الحضاري والثقافي للأمة وتختلف عن البدعة في الدين التي تعني الخروج عن العرف الديني السائد وعمّا رسمه الشرع من قيم وتقاليده.

فالمسألة الشائكة والمعقدة، تتمثل في علاقة الإبداع بالدين، ولا نعني به الدين على حقيقته كمبادئ أخلاقية سامية، ولكن نعني بالدين تلك الممارسات السلطوية التي تتغلّف بالدين لتفرض فكراً معيناً ضد التحرر، والانعتاق، وروح الإبداع. فهذا الفكر الذي يحمله بعض رجال الدين والحكام، والذي يسلّط على كل مبدع بدعوى الخروج عن الدين، أو الزندقة أو الكفر، إن هذا الفكر يحّد من عملية الإبداع ويشلّها، ويحبّطها، وهو يعمل على تشجيع فكر إتباعي، رجعي، يحارب كل فكر إبداعى خلاق.

فالمستلّطون يتوسّلون بالدين من أجل ترسيخ العرف الشائع، الذي يخدم مصالحهم، ويعززون سطوة التقاليد من خلال آيات وأحاديث لا مجال للشك فيها. واللافت للنظر هو أن المجتمع التقليدي والذين يمسكون السلطة فيه، ويتمتعون بكل الامتيازات لا يبرزون من الدين سوى الجوانب التي تؤكد سلطتهم، وتبرز القناعة بالأمر الواقع، أما جوانب التحرر والإبداع والتغيير فيُسدل عليها ستار كثيف من التعتيم، وهكذا يصبح كل ما هو عصري يساعد الإنسان على تحرير ذاته، وامتلاك زمام مصيره بدعة، وكل تأكيد على الحق والعدالة والكرامة وممارستها زندقة، ويتحول الدين إلى سلاح مسلط على المغبونين (والمبدعين) وهذا أفعل سلاح لدفعهم إلى

(1) توفيق الحكيم: من الأدب، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973، ص 10.

الاستسلام والإذعان⁽²⁾.

وهكذا يُرفع لواء الدين لضرب المبدعين الذين لا شك في أنهم يزعزعون الكيان الاجتماعي المستقر ويغيّرونه، ويبرز أصحاب هذه الأفكار ذلك بدفاعهم عن الدين، ونكرانهم للبدعة، ونظراً لأن أقوى سلاح، وأعظم وسيلة لجعل المبدعين يستسلمون هي العزف على أوتار الدين، لذلك حملوا شعاره لضرب تلك الروح الابتكارية، وكل رؤية خلاقة تهدف إلى دفع حركة التحرر الاجتماعي إلى الأمام.

وإذا عدنا إلى الممارسات التي تقوم بها بعض حكومات الدول العربية الإسلامية، فإننا نجد أنها تركز على الضعف الإنساني، فهي تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها، وتلقي في روعهم أن رواد الخير والفكر والإصلاح (أي المبدعين) ليسوا سوى أعداء الله ورسوله يحاولون نفي الدين من المجتمع بهدم السلطة التي تمثله وتصونه، وسرعان ما يسخط الناس على هؤلاء الرواد المصلحين (أي المبدعين) ويدخلون معهم في عراك طويل تستفيد منه السلطة الدينية في صرف الجماهير عن مساوئها، وفي إطالة عهدها وتمكين سلطانها.

فالحكومات الدينية إذن تحارب الإبداع، وتحارب الذكاء الإنساني، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته، لأنها تخافه وتخشاه، وتعلم أنه القوة الوحيدة القادرة على إخراجها، وهي تقنع العوام بمشروعية هدم الذكاء، ومكافحته، بحجة أن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئاً. وأن أمورنا لا تصلح بالابتكار بل بالتبعية والتقليد، ولذلك فهي تفضل أن تستعين بالذين ليست لهم موهبة (أي الأغبياء وغير المبدعين) والذين يتمتعون بمناعة ضد الفهم الواسع، والإدراك والوعي⁽³⁾. وهكذا تستعين تلك الحكومات بنوعية غبية من المنتسبين إلى العلم لكي تدعم نفوذها، ولا يعارضها معارض، ولكي تبقى المستقل مستقلاً، ولا تتيح الفرصة للمبدعين الحقيقيين كي لا ينافسوها في السلطة ويزحزحوا بالحكام تلك الكراسي الوثيرة التي بواسطتها يمتصون دماء شعوبهم، ويستغلونهم إلى أبعد الحدود.

ونظراً لأنه لا شيء يوقظ الشعوب من سباتها إلا العلماء والعباقرة والمبدعون، لذلك تحارب الحكومات هذه الفئات الاجتماعية، بل تضرب بيد من حديد كل معارض أو مخالف؛ لهذا قلّ الإبداع، وعمّت الطرقية، وانتشرت التبعية ولم يعد أحد يتحدث عن كيفية الخروج من الأزمات الاقتصادية التي تعصف بالمجتمعات العربية والتي أدت بها إلى مرحلة التخلف التي تعيشها.

فكلّ فكر خلاق مبدع يُحارب بكل الطرق والوسائل، سواء من طرف الحكام، أو من طرف المؤسسات الدينية القائمة في هذه المجتمعات، والتي تقف بالمرصاد أمام كل تطور جديد أو إبداع في مختلف الشؤون الحياتية، لكي تظل حائزة على ثقة الجماهير

(2) مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، ط 1، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1976، ص 155 و 156.

(3) خالد محمد خالد: من هنا نبداً، ط 4، دار النيل للطباعة، القاهرة، 1950، ص 176.

التي ارتبطت صورة الدين في ذهنها بكل ما هو جامد وقديم، في حين أن الدين الإسلامي لمَّا بعثه الله إلى البشرية كان ثورة حقيقية غيّرت المجتمع في جميع جوانبه ومرافقه، وكان الاجتهاد والإبداع في كل شؤون الحياة المختلفة، وكان ظهور الفلاسفة والمفكرين العرب الذين أبدعوا في كل صنوف العلوم، وجميع ميادين الفكر.

واليوم يسدل ستار كثيف على كل ذلك التقدم والروح الإبداعية الحقّة، وتسيطر على عالَمنا العربي تلك الأفكار السلفيّة التي تقف عائقاً دون أي إبداع إنساني خلاق أو فكر عميق. وما زالت ماثلة أمامنا تلك الحادثة التي وقعت في «اليمن» والتي أثارت الرأي العام، وهي تدلُّنا على مبلغ التقيد الذي يضعه بعض رجال الدين أمام الإبداع، والابتكار. فقد قام أديب شاب بترجمة قصة إغريقية قديمة بعنوان «النبي والذئب» وهي لا علاقة لها بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد، وأثناء طباعة القصة القصيرة في إحدى المجلات المتخصصة سقط حرف العطف «وهو الواو» فصار عنوان القصة «النبي الذئب»، وما أن خرجت القصة للناس حتى اتُّهم المترجم الشاب بالكفر والإلحاد، والزندقة وقد هُدد في وظيفته وحياته، وأثارت القصة (التي هي قصة قصيرة يونانية قديمة لا علاقة لها بالإسلام) زلزالاً عنيفاً في القيم الاجتماعية اليمنية، وكانت خطب الجمعة تنذّر بالآديب، وتتهمه بالزندقة. وقد اضطر هذا الكاتب الشاب إلى مغادرة اليمن لعدة أيام، بعد أن أهدر دمه، ولم يهدأ الوضع إلا بعد أن كتب الأديب الشاب «كلمات إلى الله» اعتذر فيها عن ذنبه الذي اقترفه وتاب إلى الله، مع العلم أنه لم يقترب ذنباً يوصله إلى هذا الحد من الظلم والتعدي. وهذه القصة تدلُّ بما لا يدع مجالاً للشك أن المبدعين يصطدمون عادة بالقيم الدينية السائدة في مجتمعهم، والتي تقف حاجزاً دون إبداعهم، بل إن البعض منهم وهم يقومون بعملية الإبداع يتذكرون تلك القيم السائدة والتي لا شك في أنها تعاقبهم إن تمردوا عليها، فيضعونها نصب أعينهم، فتارة يتحايلون عليها ويحاولون تجنبها وتارة لا يخوضون فيها، وتارة أخرى تعرقلهم فيستسلمون لليأس والقنوط.

وهكذا نجد أن القيم الدينية التي يحملها بعض رجال الدين تقف حاجزاً دون الإبداع، خاصة إذا تعارض معها المبدع. ولا يختلف الحال بين اليمن والجزائر، فقد نما التيار الإسلامي في الجزائر بصورة كبيرة، وفي ظل التغييرات التي تشهدها البلاد في جميع الميادين خاصة السياسية منها؛ فقد تم الاعتراف بحزب إسلامي، وصار يضغط حتى على الحكومة ورئاسة الجمهورية.

والمهم أن نمو هذا التيار صار يشكّل ضغطاً على كل عمل إبداعي فعّال، فقد صار المسجد يحتجّ على جميع تصرفات المدرسة ويتدخل في شؤونها؛ والكثير من المسيرات التي نظمتها المساجد للمطالبة بعدم الاختلاط أو فرض الحجاب على بنات المدارس أو مطالبة وزارة التعليم بعدم فرض الرياضة البدنية على المحجّبات، وغيرها من المطالب التي لا تعيد المجتمع إلى الأصالة والطريق القويم، بل تنحرف به إلى مسلك مسدود عن

طريق نشر هذه الأفكار القديمة. وقد صار أمن المواطن مهدداً، فالكثير من الجماعات الإسلامية تمارس العنف سواء على النساء أو على الفنادق التي تباع الخمر للسياح، وتطالب بإغلاقها وبالعنف.

فجماعة أحد المساجد - وكان المسجد قريباً من المدرسة - طالبت مدير المدرسة الابتدائية ألاّ يجمع بين التلميذ والتلميذة على مقعد واحد وأن يضع صفوف البنات منفصلة عن صفوف الذكور، هذا يحدث في المدرسة الابتدائية، لتلاميذ لا تزيد أعمارهم عن السادسة أو السابعة من السنوات.

ففي جوّ مثل هذا الذي يحدث في الجزائر، هل يمكن التحدث عن شيء اسمه الإبداعية؟ والغريب أن إحياء التراث شمل فقط طباعة تلك الكتب الإسلامية القديمة التي تتحدث عن الزنا، وحدّ الخمر والحجاب، وغيرها من كتب الثقافة السلفية التي لا اجتهاد فيها، ولا إبداع، فهي تكريس لثقافة ماضية بصورة مشوّهة بعيدة كل البعد عن الإبداعية، والمسلك الإسلامي الصحيح.

ثانياً: علاقة السلطة بالإبداع

علاقة الإبداع بالسلطة الحاكمة أو بنظام الحكم علاقة وطيدة وهي علاقة تأثير وتأثر، وعادة ما يكون نظام الحكم أحد الأسباب الأساسية لإعاقة العملية الإبداعية في وطننا العربي، خاصة إذا كانت تلك السلطة مستبدة طاغية.

وعبر التاريخ الطويل نجد أن ازدهار الإبداع لا يتم إلا بتشجيع من السلطة، حيث تكثر العبقريات ويتسم نظام الحكم بالتسامح وتشجيع الموهوبين، والفترات التي تشهد ركوداً وجموداً في جميع الميادين هي الفترات التي يحكم فيها المستبدون الظلام.

ويحدثنا الإمام «عبد الرحمن الكواكبي» عن علاقة الحاكم المستبد بالعلماء، والمبدعين فيقول «وللمستبد أعمال ومصالح لا يفسدها عليه إلا العلماء». وكما يبغض المستبد العلم لنتائجه، يبغضه لذاته، لأن للعلم سلطاناً أقوى من كل سلطان، لذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس اختار المتصاغر المتملّق. وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة، وصراعاً مستمراً، يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبد في إطفاء نوره⁽⁴⁾.

وهكذا تستمر المعركة بين الإبداع والسلطة، ونظراً لأن السلاح الأقوى تمتلكه السلطة إذن فهي تخضع المبدعين لشهواتها وغرائزها، فلا يجد أولئك في أغلب الأحيان إلا الهجرة، أو التقوقع. وهكذا يعيق السلطان إبداع العلماء، وابتكاراتهم المختلفة، لأن تشجيعها يمسّ عرشه المهترئ وكل ما يمس العرش ينبذه، ويحاربه ويقوم في طريقه العوائق والعراقيل.

(4) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد، معرفة للنشر، الجزائر، 1988.

إن النظم الحاكمة التي تقوم على القهر والقسر، والتي تستند في قيامها أو استمرارها إلى سلْب الحريات، وإهدار الحقوق، وامتهان الكرامات، وتسليط أجهزة الإعلام والتوجيه على العقول والنفوس، إلى درجة حجب الحقائق، وتزييف الوقائع، وغسل الادمغة، هذه النظم تترك بصماتها ظاهرة على سلوك الناس، وتصيب بنيتهم الاخلاقية بعاهات حقيقية⁽⁵⁾.

فالإبداع جريمة، والمبتكر مجرم يُعاقَب على ابتكاره، والذي يطالب بالحرية زنديق، وملاحق. إن الجَوّ المشحون بالعداء، والبغضاء والمراقبة، وتسليط الأجهزة المخابراتية يعوق المبدعين، ويحدّ من طاقاتهم، بل ويشوّه حتى من أخلاقهم، ويصيب بنيتهم بالركود والجمود والاستسلام، فكيف ينشأ إبداع في جو يعادي أبسط حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

فالإبداع لا ينشأ إلاّ في جوّ من العلاقة الديمقراطية الحقيقية حيث ينمو التفكير النقدي الخلاق بواسطة الحوار، وقبول الرأي المضاد، فشلل الفكر النقدي نابع من فرض الطاعة دون حق النقاش والفهم⁽⁶⁾.

وهكذا ترزح الشعوب العربية تحت سلطان حكامها وتحت القهر. فقد توصل الإمام «محمد عبده» إلى أن أكبر داء دخل على المسلمين في همهم وعقولهم، إنما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلاء الجهلة على حكوماتهم، وأن هذا الجهل يؤدي إلى الطغيان وبدوره الطغيان يلجئ الجماعة إلى السلبية، والمبدعين إلى الإهمال، وتصبح اللامبالاة من العادات الراسخة المقيمة في أذهانهم، فالطغيان الطويل الذي تواكب على الأمة العربية قد ترك في نفسية الجماعات المبدعة، والفئات المستنيرة سلبية موهنة مستوطنة في نفوسهم، فشوّه تفكيرهم وجعل الثقافة السائدة في أوساطهم، لا تساعد على الإبداع، والابتكار بل تقتل تلك الروح النيرة في المبدعين، وتجعلهم تابعين أذلاء، خائعين، مستسلمين. ولكي نبرهن على تلك الروح الخائعة السائدة، والفكر السلفي المسيطر، فقد ألّف أحد المرتزقة في أحد البلاد العربية كتاباً حكم فيه بكفر من يقول بحركة الأرض والجاذبية، وزعم أن الأمراض «عفارية» تحتل الأجسام، وذكر أنه هو نفسه قد أجلى بعض «العفارية» بالضرب عن أجسام كانت مريضة فشفيت، وأهاب بالمسلمين ألا يعلموا أولادهم الجغرافيا لأنها زندقة وضلال، ثم رفع هذا الهذيان إلى الحكومة الدينية التي عملت بتحريم تدريس الجغرافيا في مدارسها، وأمرت أن يمنع هذا المؤلف راتباً شهرياً كبيراً، عدا هبات أخرى تكريماً للعلم والعبقرية والنبوغ⁽⁷⁾.

ففي هذا الجَوّ مات الإبداع الحقيقي لينتفش الفكر الخرافي المنحط، وأدى الحال إلى

(5) المرجع نفسه.

(6) مصطفى حجازي: مرجع سبق ذكره، ص 122.

(7) نقلاً عن خالد محمد خالد، مرجع سبق ذكره، ص 187.

التخلف في جميع مجالات الحياة. المبدع العربي يجد نفسه مقيداً بالسلطة السياسية، من جهة وبالمجتمع من جهة أخرى، ذلك أن السلطة الحاكمة تفرض عليه توجهاً معيناً، لا يمكن له معارضته وإلا تعرض للعقاب، والجزاء. والمجتمع بما يحمله من قيم وتقاليد، وأعراف يقف حاجزاً دون انطلاق المبدع، لأن الإبداع لا يعيش إلا في الأجواء الديمقراطية، والتي تتسم بالحرية الواسعة (فالمبدع الحقيقي بطبيعة رسالته يندفع إلى تحسس هموم مجتمعه، ويتصدى لمشكلاته في مرونة وحرية، فتضيق السلطة بإبداعه الذي ينطوي على نقدها من قريب أو بعيد، فتمارس سلطانها في إحراجه والحد من نشاطه، فيتحول بعض المبدعين إلى الهروب ومغادرة ميدانهم، أو يلجأ البعض إلى الرمزية الشديدة الغموض مما يحبط الإبداع الثقافي، ويقصر به عن بلوغ هدفه، وينتج عن ذلك ظاهرة مؤسفة هي الإبداع المنحرف، ويصبح التأليف والنشر هدفين مقصودين لذاتهما، دون أن تكون هناك قضية تثار أو رأي يبدى، وكثيراً ما يجد هذا النوع الزائف من الإبداع طريقه إلى الصحف ومجلات الأدب والفكر، وتتوارى الأصالة المجدية لتترك للتزييف العقيم مكانها⁽⁸⁾).

ولعل تلك الصرخة التي أطلقها الروائي العربي «عبد المجيد الربيعي» في ندوة طرابلس، للإبداع والحرية خير معبر عن تلك العلاقة بين السلطة والإبداع. يقول الربيعي: «إن المطلوب من الكاتب من أجل أن يكون مقبولاً أن يدافع عن السلطة في بلده ويبرر أفعالها ويمتدح ما تقدمه. إنه لا يستطيع أن يكتب أو ينطق إلا وفق توجيهات، وهكذا تم تدجين العشرات واندغمت أصواتهم ببعضها، واختفت ملامحهم الإبداعية الخاصة، وصاروا يكتبون، وكان هناك يدأ خفية تمسك بأقلامهم وتحركها، وفق أبجدية مكررة، تبرر وتبارك وتتمن، ولا تعارض أو تختلف أو تحتج». ويواصل الربيعي حديثه في وصف حالة المبدعين العرب فيقول: «إننا ككتاب عرب مدجنون بشكل جيد، وكل ما نملكه هو ما يمنح لنا من بركات من نكتب عنهم، ونكبر لهم، وإننا بدونهم ستاكلنا الكلاب... ومن واجب الكاتب أن يلحق حذاء الحاكم، وليس بالضرورة أن يلعبه بلسانه، بل بكلماته المذعورة الذليلة». ويتساءل في الأخير قائلاً: «وبعد هذا كيف يمكن لنا أن نتحدث عن الحرية والإبداع، وكيف يمكن أن نجتمع بينهما، وكل ما نواجهه يحاول أن يفصل بينهما؟...».

وليكن القول أخيراً إنه لا إبداع أو ابتكار في جوّ تسوده السلطوية، والخضوع؛ فالإبداع لا يلتقي مع الخضوع لأن الإبداع حرية مطلقة دون قيود أو حدود، لذلك يمكن القول إنه لا إبداع بدون حرية وديمقراطية، ولا إبداع بغير التحرر من أكفان الماضي والتحرر من كل ما هو سائد⁽⁹⁾.

(8) د. محمد الرميحي: «الإبداع الثقافي»، مجلة العربي الكويتية، عدد 319، حزيران/ يونيو 1985، ص 16.
(9) هذا رأي الدكتور محمود أمين العالم، نقلناه من جريدة القبس الكويتية، المؤرخة في 12، 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1988.

فالمبدع طاقة راکدة غامضة، قد تكون مدمّرة إذا وجدت الحواجز التي تعوقها عن النمو، وتتّجه بها في غير اتجاهها الصحيح، وقد تكون طاقة خلّاقة أمانة إذا فتحنا لها مجال النمو والتطور فتصبح رائدة الخلق والإبداع.

وما علينا إلا رفع الحواجز أمام هذه الطاقة وإطلاقها من مكنها حتى تعطي، وتفيد، وتسهم في تطور الأمة، وتقدم البلاد.